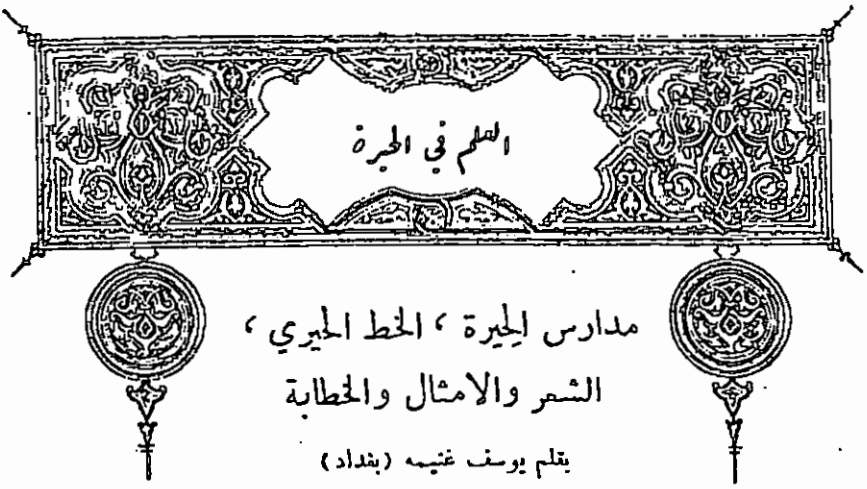

مدارس الحيرة ، الخط الحيري ، الشعر والامثال والخطابة

بقلم يوسف غنيمه (بغداد)

٢

ولا يفوتنا الاسود بن يعفر النهشلي[1] المتوفى سنة ٦٠٠ م ، الذي كان مع خالد بن مالك عند النعمان ، واقام عنده مدةً ينادمه ويؤاكله . ثم مرض فبعث النعمان اليه رسولًا يسأله عن صحته فقال :

نعمْ قليلٌ اذا نادى الصدى أصلًا ... وحسان منه لبرد الماء تنريدُ
وودّعوني فقالوا ، ساعة انطلقوا : ... اودى فاودى الندى والحزم والجودُ !
فا ابالي اذا ما متُّ ما صنعوا ... كلُّ امرىء بسبيل الموتِ مرصودُ !

واشتهر الاسود بن يعفر بقصيدته الدالية وقد جاء فيها :

ماذا اؤمل بعد آل محرّقٍ ... تركوا منازلهم ، وبعدَ إياد ؟
اهل الخورنق والسدير وبارقٍ ... والقصر ذي الشرفات من سنداد
ارضٌ توارثها الحليب مقيلها ... كعبُ ابنُ مامة ، وابنُ ام دُوّاد ،
جرت الرياحُ على محلّ ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعادِ ،
ولقد غنوا فيها بانعمَ عيشةٍ ... في ظل ملك ثابت الاوتادِ .

ومن اولئك الشعراء روّاد الحيرة النابغة الجعدي ، وهو من جعدة قيس . قال الجمحي : النابغة الجعدي اقدم من الذبياني لانه ادرك المنذر بن محرق والذبياني انما ادرك النعمان . وقال غيره : ان النابغة الذبياني شفع عند الحارث ابن ابي شمر الغساني ، حين قتل المنذر ، في اساري بني اسد فشفعه . والجعدي

---

١) الاغاني ١١ : ١٢٨ ؛ وشعراء النصرانية : ٤٧٥

قصيدة جمعها ابو زيد مع المثوبات في «جمهرة اشعار العرب» يصف بها حاله منذ كان عند المنذر وكيف سار الى النبي واسلم ووصف ناقته وفرسه وبعض المواقع وغير ذلك ، مطلعها :

خليلي عوجا ساعة وتحجرا ولوما على ما احدث الدهر او ذرا

ومنها يتذكر المنذر بن محرّق :

تذكرت ، والذكرى تهيج على الفتى ومن عادة المحزون ان يتذكرا
فدامي عند المنذر بن محرّق فاصبح منهم ظاهر الارض مقفرا (١)

بلغنا الآن الى النابغة الذبياني[٢] († ٦٠٤ م) من عاش في نعماء المناذرة فاغدقوا عليه الصلات حتى انه كان يأكل بآنية الذهب والفضة من هدايا النعمان وابيه . وما عتم ان وصف المتجرّدة ، امرأة النعمان ، وصفاً اغاظ زوجها فغضب عليه حتى هرب الى الشام ، ثم اعتذر اليه فعذره . رأى النابغة زوجة النعمان وقد سقط نصيفها فاستترت بيدها وذراعها ، فكادت ذراعها تستر وجهها لبالتها وغلظها . فقال قصيدته التي مطلعها :

امن آل ميّة رائحٌ او مغتدِ عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوَّدِ

ومنها :

لا مرحباً بغدٍ ولا اهلاً به ان كان تفريق الاحبّة في غدِ
حانَ الرحيل ولم تودّع مهدرًا والصُبحُ والامساء منها موعدي
في اثر غانية رمتك بسهمها فاصاب قلبك غير ان لم تُقصد

ومنها :

والنّظم في سلك يزيّن نحرها ذَهبٌ توقّد كالشهاب الموقدِ
صفراءُ كالبيراء اكمل خلقها كالغصن في غلوائه المتأوّدِ
قامت تراءى بين سَجفَي كلّة كالشمس يوم طلوعها بالاسعدِ
او دُميةٍ من مرمر مرفوعةٍ بنيت بآجُرٍ تُشاد وقرمدِ
سقط النصيفُ ولم تُرد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليدِ
بمُخضبٍ رخصٍ كان بنانه عنمٌ يكاد من اللطافة يُعقدُ

١) الاغاني ٤ : ١٢٦ ؛ والعمدة ١ : ٦٧ ؛ وجمهرة اشعار العرب ، ١٤٥ ؛ وزيدان : الآداب العربية ١ : ١٥٦ .

٢) الاغاني ٩ : ١٤ ؛ و١٨ : ١٨٣ ؛ والشعر والشعراء ، ٧٠ و١٢٦ ؛ وشعراء النصرانية : ٦٤٠ ؛ والجمهرة : ٥٣ ؛ والروائع ٣٠

والقصيدة طويلة وفيها اوصاف لا تتفق والآداب . ولمّا صار النابغة الذبياني الى الغساسنة بعد هربه من الحيرة كتب الى النعمان يعتذر اليه بقصيدة مطلعها :

أتاني ابيتَ اللَّعنَ ، انك لمتني وتلك التي اهتمُّ منها واصبُ
فبتُّ كأنَّ العائداتِ فرشنني مراساً به يُعلى فراشي ويقشبُ

ومنها :

الم ترَ ان اللهَ اعطاك سورةً ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ
بأنك شمسٌ والملوك كواكب اذا طلعت لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

ومن قصائده التي اعتذر بها الى النعمان في قضية المتجردة داليته الشهيرة التي مطلعها :

يا دار ميَّةَ بالعلياء فالسَّندِ اقوت وطال عليها سالف الابدِ

ومنها :

فتلك تُبلغُني النُّعمانَ ، انَّ لـه فضلاً على الناس في الادنى وفي البعدِ
ولا ارى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أحاشي من الاقوام من احدِ

وله قصائد اخرى في مدح النعمان بن المنذر وعمرو بن هند . ولمّا بلغ النابغة ان النعمان مريض لا يُرجى لم يتمالك الصبر ، فذهب اليه والفاه محموماً ينقل على السرير ما بين القصر وقصور الحيرة . فقال لعصام بن شهبرة حاجبه ، وكان النعمان يوليه اموره وجيشه :

ألم أُقسم عليك لتخبرنّي احقٌ ما يقول على النعش الهمام ؟
فاني لا ألامُ على دخولٍ ، ولكن ما وراءك يا عصامُ ؟
فان يهلك ابو قابوس يهلك ربيعُ الناس والشهر الحرام
ونمسك بعده بذناب عيشٍ أجبَّ الظهر ليس له سنامُ .

وجاء الحيرة حاتم الطائي الجواد الشهير والشاعر الكبير[1] المتوفى سنة ٦٠٥ م . في عهد النعمان بن المنذر . وكان حاتم يخفر الحكم بن ابي العاصي الذي كان يريد حضور سوق الحيرة . وكان النعمان قد جعل لبني لأم بن عمرو ربع الطريق طعمةً لهم للمصاهرة التي بينهم . ووقع خلاف بين حاتم وبني لأم في الطريق ، فاتوا الحيرة للماجدة ، وتوسّط إياس بن قبيصة لدى الملك النعمان فاعان حاتماً .

١) الاغاني ١٦ : ٦٢–١٠٦ ، ١٩ : ١٢٨ و١٥٩ : وشعراء النصرانية : ٩٨ .

وقصته مع ماوية بنت عفزر معروفة . وله قصيدة مطلعها :

حنّت الى الاجبال اجبال طيّىء وحنّت قلوصي ان رأت سوط احمرا

ومنها بيت يذكر فيه تردده على مواضع من ديار المناذرة :

وما زلتُ أسعى بين خُصرٍ ودارة (١ ولحيان حتى خفتُ ان انتصرا.

وبين شعراء الحيرة إياس بن قبيصة[٢] († ٦١٢ م) وهو من اشراف طيّ وفصحائها . وقد اتصل من مجالسة كسرى ابرويز الى ما لم يتصل اليه احد من الاعراب . وهو الذي ولّاه كسرى على الحيرة بعد موت عمرو بن هند الى ان ولّى النعمان ابا قابوس.

وعاش الشاعر سلامة بن جندل[٣] († ٦٠٨ م) في جهات الحيرة وعاشر العباديين في عهد عمرو بن هند . ولحق بالنعمان ابي قابوس وذكره في شعره لما القاه كسرى بين ارجل الفيلة من جملة قصيدة :

هو المُدخل النُعمان بيتاً سماؤهُ نحورُ الفيول بعد بيتٍ مسردقِ

وقال ايضاً في هذه الحادثة يلوم زيد بن عدي:

هو المُدخل النعمان في ارض فارس وجاعله في قولهم في المدائن ،
والقاه ايضاً بعد ذا تحت انيُلِ وفي العرب العربا بقايا ضغائن

ومن فحول الشعراء وابطال العرب الصناديد الذين سُجنوا في الحيرة عنترة العبسي[٤] († ٦١٥ م) الذي أسر في سجن المنذر بن ماء السماء، وكان قد خرج في طلب النوق الصافيرية مهر عبلة ، على ما ورد في القصة . وقد جاء في قصيدته العينية وهو في السجن :

ابا علم السعديّ هل انا راجعٌ وانظر في ذُطرَيكَ زهرَ الاراجعِ

ومنها :

ونُوحي على مَن مات ظُلماً ولم ينل سوى البُعد عن احبابه والفجائعِ

وله قصيدة أخرى قافية في الموضوع نفسه استهلها بما يأتي:

---

١) ويروى بين ثاب ودارة ٢) الاغاني ١٦ : ٩٦ ، و٢٠ : ١٣٤ .
٣) شعراء النصرانية : ٤٨٦ .
٤) ديوانه ، طبعة البستاني ، ص ٨ و٦٨ و١٦٩ ، وشعراء النصرانية : ٧٩٤ ، وزيدان الآداب العربية ١ : ١١٧ ؛ والجمهرة ، ٩٣ : والروائع ٢٧ .

تُرى علمت عيلةُ ما ألاقي من الاهوال في ارض العراقِ
طفاني بازيا والمكر عمّي وجار عليّ في طلب الصداقِ
فخضتُ بهجتي بحر المنايا وسرتُ الى العراق بلا رفاقِ
وسقتُ النوقَ والرعيان وحدي وعدت اجدّ من نار اشتياقي
الى ان قال: وقادوني الى ملك كريم رفيع قدرهُ في العزّ راقِ
وقد لاقيتُ بين يديه ليثًا كريه الملتقى مرّ المذاق
بوجه مثل دور الترس فيه لهيب النار يشملُ في المآقي
قطعت وريده بالسيف جزرًا وعدتُ اليه احجُل في وثاقي (١
عساه يجود لي بمراد عمّي ويُنعمُ بالجمال والنياق.

وله قصيدة بائية يتوعد النعمان بن المنذر ويفتخر بقوله:

لا يحملُ الحقدَ من تعلو به الرُتبُ ولا ينال العلى من طبعه الغضبُ.

ومنها: ان كنتَ تعلمُ يا نعمانُ ايّ فتى يلقى أخاك الذي قد غرّهُ العصبُ...

وهذا اعشى قيس[٢] المتوفى سنة ٦٢٩ م كان يأتي العباديين نصارى الحيرة يشتري منهم الخمرة. فاخذ عنهم مذهب القدرية الذي يتمثل في البيت الآتي:

استأثرَ اللهُ بالوفاء وبالـ ـعدلِ ووَلّى الملامةَ الرجُلا

وكان راوية الاعشى يحيى بن متى النصراني العبادي. ومدح الاعشى الاسود ابن المنذر اخ النعمان وباع في الحيرة بعض هدايا سلامة ذي فائش الحميري له.

وهذا عمرو بن كلثوم التغلبي[٣] المتوفى سنة ٦٠٠ م نظم معلقته الحماسية الفخرية غضباً لامه وقبيلته من عمرو بن هند صاحب الحيرة. وكان عمرو هذا معجباً بنفسه فقال يوماً للندماء: هل تعلمون احدًا من العرب تأنف امه من

---

١) هذه الابيات الثلاثة تدلّنا على ان المنذر كان عنده اسد وطلب من عنترة مبارزة ذلك الاسد بالسيف، وهو في قيوده، فانتصر العبسي على الاسد، فاكرم الملك مثواه. وذكر هذه العادة في شعر عنترة له خطورة لاتفاقديمة عرفتها الامم السابقة.

– « ولا يخفى ان كل هذه المعلومات وما يزينها من ابيات شعرية مستمدّة من اقوال القصاص، وهي عرضة للشك، بل من الواضح ان اكثرها منحول لا قيمة تاريخية له. وانما تكمن روايتها للدلالة على اثر الحيرة وملوكها في الادب العربي ليس غير. » [المشرق]

٢) الاغاني ٨: ٢٧٦، وشعراء النصرانية: ٢٠٨؛ والروائع ٣١

٣) الاغاني ٩: ١٧٥؛ وشعراء النصرانية: ١٩٧؛ وزيدان: الآداب العربية ١: ١١٢؛ والروائع ٢٦.

خدمة امي ؟ فقالوا : نعم ، امّ عمرو بن كلثوم . قال : ولِمَ ؟ قالوا : لان اباها مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب بن وائل اعزُّ العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك افرس العرب ، وابنها عمرو وهو سيد قومه .

فارسل عمرو بن هند ، مالك الحيرة ، الى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله ان يزير أُمَّه أُمَّه . فاقبل ابن كلثوم من الجزيرة الى الحيرة في جماعة من بني تغلب . واقبلت ليلى بنت المهلهل في ظعن من بني تغلب . وامر عمرو بن هند برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات وارسل الى وجوه اهل مملكته ، فحضروا في وجوه بني تغلب . فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق . وكان عمرو بن هند قد امر امه ان تنحّي الخدم اذا دعا بالطرف ، وتستخدم ليلى . فدعا عمرو بمائدة . ثم دعا بالطرف . فقالت هند : ناوليني ، يا ليلى ، ذلك الطبق . فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها . فاعادت عليها وألحت . فصاحت ليلى : واذلاه ! يا لتغلب ! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ونظر اليه عمرو بن هند فعرف الشر في عينيه . فوثب الى سيف معلق بالرواق فضرب به رأس عمرو بن هند ونادى في بني تغلب فانتهبوا ما في الرواق وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة .

ومعلقة عمرو بن كلثوم اشهر من ان تذكر انشدها امام عمرو بن هند ، لمّا تحاكم امامه بكر وتغلب ابنا وائل . وكانت المعلقة على غير ما تنشد اليوم ، فنقد من ابياتها واضيف اليها بعد ذلك ابيات تتعلق بحادثة امه التي ذكرناها فوق هذا . قال في مطلع القصيدة :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا

وفيها يقول : أبا هند فلا تعجل علينا وانظرنا نُخبّرك اليقينا

ومنها : بأيّ مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فينا قطينا
بأيّ مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
عَدَدْنا وتوعدنا ، رويدًا متى كنا لامك مقتوينا ؟

ومنها : ملأنا البرّ حتى ضاق عنّا وظهرُ البحر نملأه سفينا
لنا الدنيا ومن اضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

لم ينفرد عمرو بن كلثوم بذكر عمرو بن هند في معلقته وانشادها امامه

بل جاراه في هذا الباب الحارث بن حلزة اليشكري[1] المتوفى سنة ٥٨٠ م. انتصاراً لبكر في موقف المحاكمة وقد جمع فيها ذكر عدة من ايام العرب عيّر ببعضها بني تغلب تصريحاً، وعرض ببعضها لعمرو بن هند. وسبب انشاده هذه المعلّقة امام ملك الحيرة ذكره الرواة، وذلك ان النعمان بن هرم كان خطيب بني بكر، فناظ الملك بكلامه وأوشك ابن هند ان يقضي لتغلب على بكر في المحاكمة التي المنا اليها قبيل هذا في ذكر عمرو بن كلثوم. فقال الحارث ابن حلزة لقومه اني قد قلت خطبةً فمن قام بها ظفر بحجته. فرواها اناساً منهم. فلما قاموا لم يرضه انشادهم، فقال: اني لا ارى احداً يقوم بها مقامي، لكن اكره ان اكلم الملك من وراء ستور، وينضح اثري بالماء اذا انصرفتُ عنه. وكانوا يفعلون ذلك بمن فيه برص. وقيل بل كان ابن هند يفعل ذلك لعظم سلطانه ولا ينظر الى احدٍ به سوء. ثم خاف ابن حلزة على قومه وقال: انا محتمل ذلك. واقترب من الملك، فقيل للملك ان فيه وضحاً، فامر ان تُمدَّ بينه وبين الحارث سبعة ستور فجُعلت. فلما نظر عمرو بن كلثوم قال للملك: أهذا يناطقني وهو لا يطيق صدر راحلته؟ فاجابه الملك حتى افحمه. وانشد الحارث قصيدته. وكانت هند، ام عمرو، تسمع فقالت لابنها: تالله ما رأيت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول يُكلَّم من وراء سبعة ستور. فقال الملك: ارفعوا ستراً وادنوا الحارث! حتى أُزيلت الستور السبعة، واقعده الملك قريباً منه على مجلسه، ثم اطعمه في جفنته وامر ان لا ينضح اثره بالماء. ثم جزّ نواصي السبعين رجلاً الذين كانوا رهناً في يده من بكر ودفعهم الى الحارث. ثم امره ان لا ينشد قصيدته الا متوضئاً. ومطلع هذه المعلقة الشهيرة:

آذنتنا ببينها اسماء ربَّ ثاوٍ يملُّ منه الثواء!

ومنها:

ملك اضرع البرية لا يو جد فيها لما لديه كفاء.

---

١) الاغاني ٩: ١٧١؛ وشعراء النصرانية: ٤١٧؛ وزيدان: الآداب العربية ١: ١١٥ والروائع ٢٦، وشرح المعلقات للتبريزي.

(له صلة)